جهزوا أشلاءكم حطبًا لأفرانهم

اتجه فتيان فتيان لمقابلة رتب لها مع خميسة بنت الريس عفيفى ـ كما ظل يسميها ـ وبيده مظروف ملىء بالأوراق، فقال لها وهو يريح كفه عليه:

ـ «هنا ستجدين ما يدين عهدًا بأكمله وليس رجلين فقط أنت تعرفيهما»

تأملته خميسة بتأدب يشوبه التعجب، ففهم ما ترمى إليه:

ـ «أعرف يا أستاذة أننى متهم فى قتل الشيخ فريد هنيدى.. وها هى نقمة السماء قد حلت بى..»

سألته خميسة سؤالًا عابرًا:

ـ «عندما كنت تملك المليارات، وقبل أن يكف النائب العام يدك عن التصرف فيها منذ أسابيع.. لماذا لم تسدد ديونك للبنك؟»

ـ «أىّ بنك؟..»

ـ «البنك الذى اقترضت منه ثلاثة ملايين جنيه منذ خمسة عشر عامًا الآن صار المبلغ خمسة عشر مليونًا..»

لاذ فتيان بصمت طويل وهو يسترجع الأحداث منذ أن كان يتهجى فى كتاب اللصوصية.. ولم يفهم حتى الآن كيف يمكن للبنك أن يستولى على الأرض المرهونة ويعامله على القرض كمديونية دائمة.. أخرجته خميسة من صمته ليشرح لها ما يعتمل فى صدره.. وبعد حين كانت هى الأخرى تلوذ بالحيرة وتلخص حالة ضيفها فى جملة:

ـ «لصوص البنوك يسرقون على الوجهين ويطعمونك للدولة إذا شاءوا.. فاستعد للسجن الذى وعدك به صديقك البار.. ماذا فى هذا المظروف؟»

ناولها المظروف وهو يتأمل نظراتها المتفحصة، فقال لها:

ـ «لن يغفر لى أننى كنت لعبة فى يد الشيطان.. ولن تغفر لى محاولتى اليائسة لكشف جرائمه التى ستجدين بعضها فى هذا المظروف»

وعندما كانت خميسة تتأنى فى قراءة بعض الصفحات.. وعندما كانت ترفع حاجبيها بين الحين والحين كان ضيفها يعرف أنها لا تصدق ما تقرأه.. أسماء لآلاف قطع الآثار المهربة.. أسماء لشخصيات معروفة شاركت فى هذا التهريب.. عقود شراء أسلحة.. صور شيكات بمئات الملايين تم غسلها.. قصاصة من صحيفة يديعوت أحرونوت تحمل صورة ناطقة بابتسامتين تجمع السيد النحال وموشى ديان وأمامهما بعض قطع الآثار.. صورة أخرى له بصحبة فتيات يهوديات فى شوارع تل أبيب.. وعشرات من حالات التربح والتزوير والابتزاز وجلب المخدرات.

ـ «كيف حصلت على كل هذه الأوراق؟»

هكذا سألته وهى تلقى بنظارتها جانبًا، فقال لها:

ـ «نحال صغير من رجاله.. يرتقى نفس السلم بنفس الطريقة.. لم أتعب فى إقناعه أن أشترى سيده.. بالغ فى الثمن مدعيًا أن القيمة تشمل رقبته..»

وصمت فتيان قليلًا وبدا أنه فى حرج من إطلاق قول جديد يلوح فوق شفتيه.. فعاجلته خميسة بسؤال:

ـ «ماذا بك؟.. تبدو كمن يكتم شيئًا..»

ـ «لا.. لن أكتمه.. خذى حذرك يا أستاذة أنت والأستاذ»

ـ «هل نحن فى خطر؟»

ـ «أجل..»

ـ «وكيف أثق فى كلامك؟»

ـ «ليس لدى الدليل على جريمة لم تتم.. ولكنى أملك السبب..»

ـ «تقصد مقالات الأستاذ حلمى ضده وكشفه لجرائمه خاصة جريمة الشيخ فريد»

ـ «لا..»

ـ «إذن، فما السبب؟»

ـ «ألا تصبحين الملكة التى تنبأت بها العرافة على كوبرى الملك الصالح»

واعتدلت خميسة عندما أتى فتيان بهذه العبارة.. ثم ازداد اعتدالها وهى تسمع ما يأتى به فتيان من تحاليل وليست أخبارًا حول صديقه الذى لم ينس ما قالته العرافة من أنه سيملك مفاتيح الدنيا التى ستفتح الطريق إلى نهايته، وأنها ـ أى خميسة ـ ستنتقل من رجل نذل إلى رجل حرّ وأنها ستغدو ملكة.. وأن النحال التفت إلى نبوءة العرافة يوم أن تزوجت طليقته من حلمى عبد الباقى وهو الذى أخذه الظن أنها ستعود بعد طلاقها منه إلى البلد مهزومة منكسرة تجتر ذكرى سنوات عابرة وغابرة عاشتها فى القاهرة.. وراح يراقب صعودها الهادئ ونجاحها كمحامية تحولت إلى ملكة بين زميلاتها المحاميات لكونها فى كنف رجل ملء السمع والبصر.. وعندما كان النحال يفشى فضيحته بنفسه كرجل عقيم ماتت زوجته فى عملية إجهاض توافق أن شاهدهم جميعًا فى سيارة واحدة.. حلمى وخميسة وولديها التوأم.. أكله الحسد وراح يأكله القلق.. واكتشف أن الدنيا أعطت طليقته بحب فى حين تعطه بغضب.. وأن خميسة نالت مالم يمكن أن يناله.

الذرية.. والرضا.. والأمان.. وصارت أسرة خميسة هى الحالة التى تمناها وحرمه منها القدر.. الحالة التى لن يبلغها.. فأصبحت هى وكلّ من يتمتعون بالأمان والذرية من ألد أعدائه حتى لو كانوا من أقرب أصدقائه: حشمت بركات الذى يملك قافلة من الأولاد فتيان فتيان وولديه.. الشيخ فريد هنيدى الذى أنجب ولدًا وشرف بولد آخر من صلب صديقه رأفت إبراهيم فى واقعة حميمة أحيط فيها بولدين وزوجة صالحة.

سألته خميسة:

ـ «أهو عقيم فعلًا أم كان يدعى ذلك فى معركته مع حشمت بركات؟»

قال لها بتشف:

ـ «لن يهنأ بذرية من صلبه، فظهره خال من البذور»

ـ «ألهذا أضرب عن الزواج ؟»

ـ «يقول إن الزوجة فى حالته طرف يأخذ ولا يعطى، وهو لا يحب مثل هذه العلاقة»

ثم يغمغم فتيان كأنما يحدث نفسه:

ـ «وعطاء غرف النوم متاح له فى غرف الآخرين، فلماذا يتزوج؟»

قالت خميسة:

ـ «لعلها مشيئة الله أن يرحمنا من ذرية تأتى من صلبه»

فقال فتيان:

ـ «ولكن والده عباس النحال له رأى آخر، فما زال يواصل الإنجاب ويهدى للبشرية أطفالًا جددًا وبكثرة من نساء متعددات»

فغرت خميسة فاها دهشة:

ـ «هل ما تقوله صحيح؟.. قيل لى هذا الكلام.. فتعجبت»

واصل فتيان:

ـ «لك الحق، فهو كلام يصعب تصديقه.. رجل عمره أكثر من خمسة وسبعين عامًا لا يكاد يرى أمامه.. منذ ماتت زوجته أم الخير وهو لا يكف عن الزواج بأخريات.. يميل إلى البدينات.. خادمة.. بائعة خبز.. بنت الجنايني.. ممرضة كانت تضرب له الحقن.. أطفاله اختلطوا بأطفال العمال والخدم فى القصر.. لم يعد يعرف لهم شكلًا أو عددًا»

وغمغمت خميسة:

«وكأن الدنيا القادمة بحاجة إلى نحالين جدد الذين تربوا فى إسطبل القصر، لا أظن أنهم سينخرطون فى صف الملائكة.. الإنتاج لن يختلف عن سابقه.. فالمنتج هو نفسه.. عباس النحال».

عادت به خميسة إلى الخطر القادم الذى حذرها منه، فسألته إن كان يملك أطراف مؤامرة طليقها ضدها هى وأسرتها.. فأفهمها فتيان أنه لا يملك خبرًا يقينًا عن مؤامرة قدرما يملك إبعاد كمية الحقد التى يحملها السيد النحال ضدها منذ أن زارت نادية عز الدين ودلتها على محام بعينه فى قضية مقتل زوجها الشيخ فريد هنيدى، فقالت خميسة:

ـ «تمنيت لو كنت أنا بديلًا عن هذا المحامى الزميل لولا خشيتى من هذا الخصم البعيد عن الشرف أن يزج بى فى قضايا واتهامات شخصية..»

أيدها فتيان قائلًا:

ـ «لك الحق، فهو يوظف كل شيء وأيّ شيء لصالحه، فهل لنائب محترم أن يخلع جوربه أمام الكاميرا ليطلع الناس على إصبعين مبتورين فى قدمه؟»

وتذكرت خميسة أن السيد النحال حرص على إخفاء إصبعيه هذين فى ليلة عرسها وكأنهما عورة.. وفيما بعد وعندما كثرت عورات نفسه تعجبت أنه لم يحاول مواراتها كإصبعية اللذين بترهما مقص الحديد.. ثم راحت تتساءل عن المقص الآخر الذى شوه كل دواخله؟

* * *

أغرق الذهول وجه حلمى عبد الباقى وهو يتفحص أوراق المظروف الأسود، وما إن انتهى من التعرف على ما به حتى انتهى إلى رأى مؤكد قال فيه:

ـ «إن ارتقاء هذا الوطن هو الوهم البعيد الذى لن يتمتع به طالما جلس على دكة الحكم فيه أناس يعانقون النقيصة ويعشقون الفجر والدناءة».

وبعد حين عرف السيد النحال أن هناك من اخترق مواقع قلعته الحصينة وأن فتيان اشترى رجلًا من رجاله، فها هو حلمى عبد الباقى ومعه كتيبة من الصحفيين يدكون معاقل رجال النظام اللصوص، وهو على رأسهم، ويكشفون أوراق جرائم عديدة: المتاجرة بديون مصر، المتاجرة بالسلاح، نهب البنوك، استيراد الأغذية الفاسدة والأدوية المسرطنة، سرقة الآثار، نهب المحفوظات النادرة، التفريط فى سوق القطن المصرى، إغلاق مصانع الغزل والنسيج، التمسح فى التطبيع مع إسرائيل وجلب خبراء الزراعة اليهود بدعوى التطوير فأمسكوا بلحومنا على طريقتهم ونشبوا فيها أسنانهم.

ولم تهتز مقاعد اللصوص.. فثقافة النظام غير المعلنة هى اتخاذ الصمت والتجاهل سبيلًا لمواجهة منتقديه، وكأن شيئًا لم يكن.

* * *

ورفع فتيان فتيان عبد اللطيف يديه مستسلمًا وهو يهش عن وجهه غبار انهيار مملكته بيأس وذهول، واكتشف أن الشيك القديم كان لظهوره المفاجئ فى هذا التوقيت وظيفة

واحدة، وهو أن يشير للصحافة والرأى العام والجمهور المودعين أنه رجل مجبول على السرقة والنصب منذ زمن بعيد، ناهيك عن سهولة الإمساك به وتقييد حركته فى قضية لن تستغرق وقتًا ينال بعده حكمًا مستحقًا ومضمونًا.. ذلك أن قضاياه مع المودعين بها بها من طابع التراضى بين طرفى التعامل المالى قد ينجح محام بارع فى كسبها لصالح شركة الفتيان.. فالعلاقة تصبو إلى الكسب لكنها لا تمنع الخسارة وأن يكون الفتيان قد خسر أموال المودعين فلا مانع من ذلك.. فليس هناك ما ينص على غير ذلك.

وهكذا وقبل أن تفتح ملفات شركة الفتيان كان فتيان الأب قد نال حكمًا بالسجن المشدد لعشر سنوات فى قضية الشيك الذى قال عنه وهو يوقعه منذ خمسة عشر عامًا

ـ **«هل هذا هو الشيك الذى سأسجن بسببه؟»**

يومها قالها ساخرًا.. دون أن يعلم أن سخريته سترتد إلى نحره..

* * *

وفى مشاويره المتكررة إلى تحقيقات النائب العام مكبلًا بالقيود كان يمد الصحفيين المهرولين خلفه بمعلومات جديدة فى كل مرة، ولما سألوه عن قاتل الشيخ فريد هنيدى قال إن السيد النحال هو الذى خطط لهذه الجريمة أمامه..

ولما رفع صحفى عقيرته سائلًا:

ـ **«أمامك أم معك يا شيخ فتيان؟»**

رد مسرعًا وباستهتار:

ـ **«أمامى.. يا حيلة أمك»**

وضج الطابور المتحرك خلفه بالضحك.. وكأنما اكتشف فتيان هذا الشىء الذى غاب عنه طويلًا: «الضحك» فتسلل إلى البحث عنه فى خضم مأساته، فصار يروى ما يرويه لشباب الصحفيين بروح الهذر والسخرية. خاصة ما رواه عن الوزير المستشيخ الذى هاتفه ذات ليلة قائلًا:

ـ **«ولد يا فتيان.. علمت إنك عندك دولارات من أم جنيه للدولار.. سأرسل لك مليون جنيه.. أرسل لى مليون دولار يا ولد فتيان»**

ـ «يا فندم الدولارات سعرها الآن ثلاثة جنيهات ونصف»

ـ «يا ولد يا لئيم.. اطلع من دول يا عفريت.. إنت عندك دولارات من أم جنيه.. هات لى منهم.. واحنا برضه رجالك يا فتيان جايز الزمن يرميك علينا»

وفهم فتيان أن وزير الداخلية صار من رجاله بقرار من الوزير نفسه.. والمقابل دولارات من النوع القديم..

ويكمل فتيان روايته قائلًا:

ـ «ويعاود الوزير الشيخ الاتصال بى.. ولد يا فتيان عندى مليون دولار سمعت أن السعر وصل أربعة جنيهات.. ابعت لى البنكنوت كله من فئة المائة جنيه»

ويكسب مولانا المتدين ثلاثة ملايين من الجنيهات فى عدة شهور حامدًا الله الذى هداه أن يكسب قوته بالحلال؛ فالله حلل البيع والشراء وحرم الربا، وأمام هذه الرواية ينبرى صحفى شاب فيكيل اللعنات لفتيان وللحكومة والوزراء الذين تلاعبوا بأرزاق الشعب دون رحمة أو خجل فيرد عليه فتيان ساخرًا :

ـ «إذا كان الوزراء الشيوخ فى هذا العهد الرشيد يتلاعبون بالله وبكلام الله.. فماذا سيحدث لك لو سمعت منى مهازل الوزراء الكاجوال.. ارحم نفسك يا بنى.. فنصف خطط بلدك ترسم قرب أفخاذ الراقصات..»

* * *

وأخذًا من اعترافات فتيان أعاد حلمى عبد الباقى فتح ملف مقتل الشيخ فريد هنيدى.. بل إنه أشار بوضوح إلى ما حذره منه فتيان من أنه صار مستهدفًا ـ هو وأسرته ـ من غريمه الدائم السيد النحال.

وكالعادة واجه النظام كل ما قيل عن رجله الأثير بالصمت والتجاهل، ولما صاح حلمى عبد الباقى محتجًا ومفصحًا عن إدانته لهذا التدليل وتلك الحماية التى يتمتع بها رجل تسبقه جرائمه أينما ذهب، رد عليه كنت موجوعًا مثله بصحيفة معارضة أخرى:

ـ «السيد حلمى عبد الباقى يتعجب لكل هذا التدليل وتلك الحماية التى يتمتع بها السيد النحال.. ألا تعلم يا سيدى أن النحال هو الإرث المنقول من عهد إلى عهد؟ ألا

تعلم أنه خادم كل العهود.. أليس هو البادئ دومًا بفتح مبايعة جديدة للرئيس فى كل مرة؟ أليس هو قامع أصوات المعارضة فى مجلس الشعب فيسكتها وهو يلوح بحذائه؟.. إنه البلدوزر الجاهز دومًا للكسح والاكتساح طيلة النهار، ثم يعود إلى نومته الهنيئة فى حضن الحكومة ليلًا.. فليوفر حلمى عبد الباقى مجهوده، وليقمع ثورته بنفسه.. فمجهوده وثورته لن يغيرا من الأمر شيئًا.. فكلّ ما تريده الحكومة سيتحقق وكلّ ما يشير به النحال سيكون رهن التنفيذ.. والقافلة تعوى والكلاب تسير»

وفى تحقيق صحفى جديد قام حلمى عبد الباقى بنشر صورتين متجاورتين لتلميذين صغيرين تعلوهما صورة أمهما، وفوق الجميع عنوان عريض مثير:

ـ «دم عائلنا فى رقبتك يا سيادة الرئيس..» وأسفله عنوان آخر:

ـ «عائلنا كان يحارب الفساد، فقتله الفاسدون..»

وفى التحقيق جاء على لسان الصبى حسن رأفت إبراهيم قوله:

ـ «إن قاتل أبى ينعم بعطفك يا سيادة الرئيس.. فمتى ننعم نحن بهذا العطف؟»

أما ما جاء على لسان معاذ فريد هنيدى، فهو نداء منه إلى الرئيس:

ـ «نظرة حقيقية إلى المظلومين يا نصير الظالمين»

وقد قالت أمهما نادية عز الدين قولًا فصلًا:

ـ «بعض الخجل وأنت تعاملنا كالعبيد يا سيادة الرئيس»

ولأن كلّ هذه الأقوال وضعت على لسان قائليها عمدًا، ولأن النظام ورجاله يعرفون من الذى وضعها فقد تجاهلوا أصحاب الصور والأقوال، واتجهوا إلى منزل حلمى عبد الباقى فجرّوا وسحبوه من سريره ، ولم يجيبوا على أسئلة خميسة وولديها الشابين اليافعين سوى بجملة واحدة:

ـ «سنأخذ منه كلمتين ثم يعود..»

وانتشر خبر اعتقال الكاتب الثائر حلمى عبد الباقى أحد ضباط ثورة يوليو البالغ من العمر سبعة وستين عامًا، فهتف كاتب من منبره:

ـ «اللعنة.. ارحموا الشيوخ البررة الذين يحبون هذا الوطن أيها السفلة»

وفى تحليل موسع لتاريخه المجيد انفردت صحيفة بسرد هذا التاريخ قائلة إن مصيبة هذا الرجل هو تمسكه بما آمن به من أن السلام المزعوم مع إسرائيل هو الوهم بعينه، فلا أمان لصلح مهادن بين ذئب وحمل، ويمكنكم أن تروا أثر ذلك فى أشلاء الحملان الأخرى، ثم راحت صحيفة أخرى تثنى على رجلها الوطنى وثوب وطنيته الذى ظل ناصعًا عندما رفض أن يكون ذيلًا للسلطة وأن يكون أول سفير مصرى فى تل أبيب، وأن يصبح «نحالًا» مختالًا يهنأ بالنعيم المسروق شأن كل النحالين.

وطالت غيبة حلمى عبد الباقى فى أسره إلى أن عاد إلى أسرته جثة هامدة فى صندوق خشبى..

ونادت خميسة على صديقتها المخلصة وشقيقته البارة المهندسة سوسن أن تسرع إليها لتلها على مقابر الأسرة..

ـ «المقابر.. لماذا يا خميسة؟»

ـ «لندفن حلمى يا سوسن.. أبلغونى الآن بموته فى السجن»

ـ «من هم هؤلاء..؟»

ـ «لا أدرى..»

ودفنوه فى ليلة مظلمة وسط إجراءات أمن مشددة ، فنعاه كاتب شاب بقوله:

ـ «لتلحق أيها الفارس النبيل بشيخك الراحل فريد هنيدى رفيقين على صراط الجنة وشهيدين تحفكما الملائكة لتؤكد بموتك أن ثورة يوليو لم يتبق منها سوى اسمها..»

وتساءل كاتب مهموم فى صحيفة أخرى:

ـ «ليس صدفة أن يغتال كلٌّ من تصدى لإسرائيل فى الخارج وللنحالين الطواغيت فى الداخل.. لقد خلا الميدان من الأبطال الذين يمكن أن يواجهوا الخونة.. فهنيئًا للخونة بالنظام.. وهنيئًا للنظام بهم.. أما أنتم يا أبناء الفراعنة العظام فجهزوا أشلاءكم حطبًا رخيصًا لأفران أبناء صهيون وأتباعهم من النحالين الخونة..»